الجزء الأول

فنون الشرق الأوسط القديم

في العصور البدائية وفي عصر الأسرات

القسم الأول

فنون الشرق الأوسط القديم

في العصور البدائية

تمهيد تاريخى لبداية الحضارة الإنسانية وتطور الفن

مرت أحداث وتطورات كثيرة فى حياة الإنسان الأول الذى انتشر على سطح الكرة الأرضية استغرقت مئات الآلاف من السنين ، قبل أن يتمكن الجنس البشرى من السير فى مراحل التقدم التى كانت إيذانًا بدخوله فى العصور التاريخية .

ولقد قسمت هذه الآلاف من الأعوام إلى حقبات متتالية تبعًا لتطور المواد المختلفة التى استخدمها الإنسان فى عمل أدواته الخاصة .

فى الحقبة الپاليوليتية « العصر الحجرى القديم » استخدم الإنسان الحجر المنحوت نحتًا بسيطًا فى عمل أدواته . وفى الحقبة التالية الميزوليتية « العصر الحجرى الوسيط » ، ظهرت أدوات مصنوعة من العظام إلى جانب الأدوات الحجرية المصقولة . ثم توصل الإنسان فى الحقبة الأخيرة النيوليتية « العصر الحجرى الحديث » إلى استعمال النحاس فى عمل أدواته ، إلى جانب الأدوات الحجرية .

ولقد مرت بحياة الإنسان الحجرى من ناحية تطوره الحضارى مرحلتان متتاليتان . مرحلة جمع الطعام التى استمرت خلال العصرين الحجرى القديم والمتوسط . ظل فيها الإنسان متجولا وراء الصيد باحثًا عن غذائه . ثم انتقل بعدها إلى مرحلة إنتاج الطعام حينما توصل بطريق الصدفة إلى الزراعة .

ويعتبر اكتشاف إنسان العصر الحجرى الحديث للزراعة إيذانًا بانقلاب كبير فى حياته التى عرف خلالها الاستقرار . حيث هجر مساكنه فى الكهوف الصخرية إلى مساكن فى السهول . وتحول الإنسان من جامع للغذاء إلى منتج له . وحل الزارع محل الصياد . وظهرت تبعًا لذلك ملكية الأرض .

وعندما قابلت الزارع مشاكل تحتاج إلى أكثر من جهد واحد تعاون مع غيره من الأفراد فى زراعة الأرض . وتكون بذلك نظام شبه قبلى ساعد على التمتع بحياة مستقرة . وبذلك تكون المجتمع الأول وكانت إحدى النتائج الهامة للحياة الجماعية أنها كونت القرى . وكان لا بد للحضارة أن تنمو وتتطور . واحتاج الإنسان إلى معرفة أشياء أخرى غير الفلاحة فصنع الأوانى الطينية ليضع فيها مقتنياته . وعند ما اكتشف تأثير النار على الطين استخدمها فى الحصول على الأوانى الفخارية . وسرعان ما حلت الأوانى الخزفية محل الأوانى المصنوعة من الطين أو الجلد أو الحجارة . ولما عثر على المعادن كالنحاس والذهب استعملها بقصد الزينة وبذلك تطورت حياته تطوراً حضارياً واضحاً .

انتشر إنسان العصر الحجرى الحديث فى أكثر من منطقة على سطح الكرة الأرضية . واكتشفت آثاره فى أكثر من مكان . وكان يبغى فى اختياره لهذه المناطق اعتدال المناخ وخصوبة التربة الموجودة حول وديان الأنهار . وتعتبر منطقة الشرق الأوسط من أقدم المناطق التى ظهرت فيها الحضارة الإنسانية وازدهرت فى وقت مبكر . ويرجع ازدهارها إلى عوامل البيئة الطبيعية التى كان يبحث عنها الإنسان . وكذلك إلى جهوده . والواقع أن أسبق المناطق التى ازدهرت فيها الحضارة فى منطقة الشرق الأوسط هى وادى النيل . ووادى الرافدين « دجلة والفرات » وعنهما أخذت بقية أقاليم الشرق الأوسط حضاراتهم .

ولقد ولد الفن عندما بدأ إنسان العصر الميزوليتى يشعر بالقوى التى تسيطر عليه ، وعبر عن ذلك بتصاوير ملونة على جدران الكهوف . ولقد ظهرت آثار هذا الإنسان ذو المواهب الفنية فى جهات مختلفة فى جنوب فرنسا وشمال أسبانيا . وأبدع ما عثر عليه وجد فى كهوف لاسكو بفرنسا (ش ٩١) والتميرا فى أسبانيا . وترجع الأولى إلى الفترة ١٥٠٠٠ — ١٠٠٠٠ ق. م والثانية إلى حوالى ٢٥٠٠٠ ق.م. وتدل تصاوير إنسان هذه الكهوف على أن هذا الفن الذى بلغ القمة فى

(١) تصوير جدارى وجد بكهف لاسكو ، فرنسا

حوالى ١٢٠٠٠ ق.م. كان فى جوهره فن الصياد الذى أراد أن يعبر عما يكمن فى شعوره . فاهتم برسم الحيوانات المعاصرة التى كان يرغب فى صيدها مثل الخيول والجاموس البرى والغزلان . لذلك اقتصرت رسومه الأولى على الحيوان دون الإنسان . ويعتقد العلماء أن فن الإنسان الصياد كان فى مظهره الأول منبثقاً من اعتقادات تسيطر عليه ، فربما كان يظن أن مهارته فى رسم الحيوانات التى يخافها يعطيه سلطة عليها ، وتزيد من مقدرته على التغلب عليها . لذلك تميزت رسوم الحيوانات بالدقة التامة والحركة والحيوية . ولقد حصل المصور الأول على ألوانه من أكاسيد الحديد والمنجنيز واللون الأسود من العظام المحروقة . ولم تقتصر محاولات الفنان الأول على التصوير بالألوان ، بل نجد أنه قام بعمل نقوش بارزة على الصخور والعاج (ش ١٢) كما قام بعد ذلك برسم صورة شبحية لنساء .

على أنه لا يمكن أن نتجاهل ما قام بعمله إنسان العصر الباليولينى الذى جاء إلى أوربا فى حوالى ٢٥٠٠٠ ق.م. قادماً من جنوب آسيا وشمال إفريقيا . حيث عثر على آثار فنية متفرقة أهمها تماثيل صغيرة لأشكال نسائية عرفت باسم

(١٢) نحت على العاج
على هيئة حيوان

فينوس . ومن أشهر هذه الأمثلة فينوس ويلندورف بالنمسا (ش ٣٣) وليسورج بفرنسا. ويلاحظ فى هذه التماثيل اهتمام الفنان بالأجزاء المتصلة بوظيفة الأمومة كالصدر والبطن .

عثر على أمثلة لمرحلة متأخرة من فن الإنسان الصياد فى شمال إفريقيا وفى كهوف الصحارى الجانبية بوادى النيل[1] . ويمكن نسبة هذه الآثار إلى بداية العصر الحجرى الحديث . وأحسن أمثلة لفن الصياد فى شمال إفريقيا عثر عليه فى كهوف التاسيلى فى شمال شرق الهقار (ش ٣٤) وفى فيزان وفى الصحراء الليبية . وقد تطور هذا الإنسان وتقدم الفن فى العصر النيوليتى عندما تحول الصياد إلى مزارع فشكل الأوانى الفخارية وزخرفها بالألوان .

ولقد كشفت الحفائر عن آثار فنية لإنسان العصر الحجرى الحديث فى أكثر من مكان فى بلاد الشرق الأوسط القديم، ويرجع تاريخ أقدم الآثار التى عثر عليها فى بلاد النهرين إلى حوالى عام ٦٠٠٠ ق. م. حيث عثر على أوان فخارية بدائية وأدوات حجرية لقبائل سكنت المنطقة الشمالية فى ذلك التاريخ فى بلدتى « جارمو » Jarmo (تبعد ٣٥ ك . م شرق كركوك) . و« حسونة » Hassuna (قرب الموصل) . كما عثر فى هاتين القريتين على دمى يمثل بعضها نساء

(١) أحسن ما كتب عن هذه الأبحاث قام بها الأستاذ H. Winkler .

(١٣) فينوس ويلندورف تمثال صغير
من الحجر ، متحف فينا

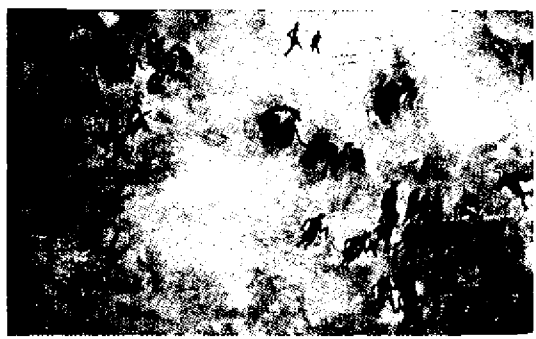

(١٤) تصاوير جدارية وجدت على كهوف
تونس وليبيا

بدينات . ومن المحتمل وجود أماكن مماثلة مبعثرة فى الشرق الأوسط ترجع إلى ذلك التاريخ ، فقد كشف النقاب حديثاً عن آثار حضارات معاصرة فى جنوب بلاد الأناضول فى بلدتى « ستال هويوك » و « هاسيلار » .

وتسبق هذه الحضارات حضارة وجدت بمدينة « أريحا Jericho »بالأردن . حيث دلت الاكتشافات الحديثة التى عثر عليها فى هذه المنطقة على أن إنسان العصر الحجرى الحديث كان متقدماً فى الحضارة ، إذ عمل على تحصين مواقعه بالأسوار الحجرية قبل أن يكتشف عملية حرق الفخار . كما تمكن من المحافظة على شبه الموتى بصب طبقة من مادة تشبه الجص على الجماجم البشرية . على أن حضارة « أريحا » اندثرت فجأة ولم يستفد منها أى شعب من شعوب الشرق الأوسط .

ولفترة تزيد على الألف عام بعد آثار « أريحا وجارمو وحسونة وبلاد الأناضول » لم تكتشف للآن آثار لسكان منطقة الشرق الأوسط . وفجأة يبرز لنا بعد ذلك من الظلام حضارات متصلة متعاصرة فى مكانين مختلفين فى وقت واحد تقريباً : فى وادى النيل ومنطقة بلاد النهرين . وتحمل هذه الحضارات فى طياتها جذور فنون الشرق الأوسط القديم الذى ينتشر فى المنطقة .

الباب الأول

مصر

أولا – العهود البدائية :

دلت الحفريات التى قام بها المنقبون على وجود مخلفات لإنسان العصر الحجرى القديم فى صحراء العباسية ، كما عثر كذلك على آثار العصر الحجرى الأوسط فى الفيوم ، وعلى جانبى الوادى فى المناطق الصحراوية .

ولقد عرفت الزراعة فى مصر منذ أواخر العصر الحجرى الحديث بعد حلول الجفاف وانعدام الأمطار فى المناطق الصحراوية . فانتقل نشاط الإنسان إلى سهل الوادى الخصب وتعلم زراعة الأرض واستنباتها .

تمكن الأثرى الأستاذ « وينكلر » H.A. Winkler من تمييز ثلاثة عناصر مختلفة من الأجناس التى كونت القبائل بعد أن تجمعت فى الوادى واستقرت به ، وذلك من رسوم لوحدات حيوانية وآدمية سجلت على جدران الصخور العالية الموجودة على جانبى الوادى فى المواقع التى كانت تحل بها تلك القبائل .

فمن صور الآدميين أمكن التعرف على سكان الواحات الذين هاجروا منها بعد الجفاف إلى الوادى . كما أمكن تمييز سكان الجبال الذين اضطروا إلى الاقتراب من النهر لقلة الأمطار على الهضبة بما احتوته تلك النقوش من مناظر الصيد (شكل ١) . وعرف العنصر الثالث وهى القبائل الأجنبية النازحة من الشرق من شكل قواربهم المرسومة على جدار آخر (شكل ٢) . حيث تتميز هذه القوارب بقاع مسطح مرتفع عند المقدمة والمؤخرة ، ويختلف شكلها عن قوارب المصريين ذات القاع المقعر المرسومة على الأوانى الفخارية التى عثر عليها فى مقابر المصريين البدائيين (شكل ٥) . ويتكرر ظهور هذه القوارب المصرية فى زخارف قطعة نسيج وجدت فى مقابر المصريين فى منظر يوضح صيد فرس البحر .

تجمعت هذه الأجناس المختلفة فى الوادى واستقرت به وانتقلت حياتهم من التجول للبحث عن الطعام إلى حياة الزراعة والاستقرار مما ساعد على تكوين القرى الصغيرة . ومع نشأة هذه القرى تكونت بها حضارات متتالية ، قسمت على ثلاث فترات زمنية عرفت أسماؤها بأسماء الجهات والبلاد التى عثر فيها أو بالقرب منها على آثار لتلك القبائل .

ويرجع تاريخ أقدم هذه الآثار إلى سنة ٥٠٠٠ ق . م [١] ويطلق على هذه الفترة « الحضارة التاسية » Tasian ، نسبة إلى مواقع فى الوجه القبلى تميزت أكثر بطابع هذه الحضارة . ووجدت فى الجنوب فى « ديرتاسا » بأسيوط وفى الشمال فى مرمدة « بنى سلامة » و « العمرى » . وتتكون آثار تلك الفترة من أوان فخارية (شكل ٣) مصنوعة باليد وأسلحة صغيرة حجرية ، كما تدل الآثار على أن أهالى ذلك العصر أجادوا صناعة السلال والمنسوجات وكانت حليهم من العاج والعظم والأصداف .

مرت فترة طويلة حوالى ١٠٠٠ عام قبل أن يظهر تطور فى الحضارة المصرية ، وعرفت الحضارة التالية باسم حضارة « البدارى » ، ومن المعروف أن حضارتهم موروثة عن الحضارة « التاسية » ووجدت آثارها فى مدن « البدارى » و « مستجلدة » و « متمار » . ومجموعة هذه الآثار عبارة عن أوان فخارية تدل على تقدم فى الصناعة ، كما زخرف بعضها فى تلك الفترة بخطوط هندسية (شكل ٤) وقد اكتشفت عملية حرق الفخار . كذلك عثر على تماثيل صغيرة من الفخار والعظام ومن البازلت ، وكانت قبائل البدارى أول من استخدم النحاس فى صنع الدبابيس .

أعقبت حضارة « البدارى » حضارة « نقادة » المشهورة ويرجع تاريخها إلى سنة ٣٤٠٠ ق . م ووجدت آثارها فى أماكن متعددة : « نقادة » — « البلاص » — « العمرة » — « أبيدوس » — « الكاب » . كما ظهرت فى جزء من

---

(١) اهتم أستاذ علم المصريات الأستاذ « فلندز بترى Flanders Petrie » بدراسة الفترات البدائية فى كتابه (Prehistoric Egypt) .

(شكل ١) رسوم بالطباشير ويظهر بها حيوانات ورجل يصطاد نعامة. (منقولة عن كتاب الأستاذ «فانديه Vandier)

(شكل ٢) رسوم بالطباشير لنوعين مختلفين من القوارب البدائية (صورة منقولة عن كتاب الأستاذ «ونكلر Winkler»)

شكل ٣) قدر من الفخار بزخارف هندسية
ل العهد الثامن «المتحف المصرى بالقاهرة »

(شكل ٤) آنية من الفخار من أواخر «عهد البدارى »
طر الإناء ١٩,٥ سم « متحف الفنون ببوسطن »

(شكل ٥) آنية من الفخار من « عهد جرزة » المتحف المصرى بالقاهرة

بلاد النوبة . وهذه الحضارة غنية بالآثار ، ومراحل التطور فيها واضحة مما جعل الباحثين يقسمونها إلى مرحلتين رئيسيتين هما : مرحلة « نقادة » الأولى حضارة « العمرى »[١] ونقادة الثانية أو حضارة « جرزة »[٢] . ومن هذه الفترة ابتدأ ظهور المصنوعات العاجية كما تظهر الأوانى الملونة بزخارف حيوانية وآدمية . وتتقدم صناعة المنسوجات وتظهر فى هذه الفترة صناعة التماثيل الصغيرة لأشكال آدمية ربما كانت تستعمل كتعاويذ تجلب الحظ وتدفع الأذى .

فمن حضارة العمرى ، عثر على دمى من الفخار والعاج تمثل رجالا ونساء . وتظهر التماثيل النسائية (شكل ٦) ملتصقة أطرافها السفلى ، أما أطرافها العليا فتمتد إلى أعلى . ويلاحظ أحيانًا الوشم المرسوم على هذه الدمى . وتدل صناعة هذه التماثيل على عدم مراعاة الدقة فى نسب الجسد البشرى .

وبحلول عهد « جرزة » طرأ تغيير كبير فى الأعمال الفنية ويتضح ذلك من تمثال مصنوع من البازلت (شكل٧) يتسم بتصميم يدل على براعة فنية ممتازة فى تمثيل الجسم والملامح . كما تمتاز أوانى هذه الفترة بتقدم واضح فى الصناعة وبزخارف تمتاز بطراوة الخطوط التى رسمت بها صور الرجال والحيوانات والطيور المائية أو القوارب (شكل ٥) .

وتمثل نهاية عهد « جرزة » فترة مهمة فى فنون عهد ما قبل الأسرات ، حيث يكثر فيها ظهور الأعمال الفنية . كما تتميز بدقة الفن الذى وصل إلى المرحلة التى أدت إلى قيام الفن الفرعونى . فمن تلك الفترة ابتدأ ظهور النقش الغائر على السطح المصقول . ومثال ذلك مقبض السكين المحفوظ بمتحف « اللوفر » والذى عثر عليه فى « جبل العرق » قرب دندره غرب النيل . ومقبض هذه السكين مصنوع من العاج (شكل ٨) وبه نقوش بارزة من الجهتين ، تصور إحداها (شكل٨ أ) معركة بين طائفة من الرجال العراة ، وقوارب مختلفة

---

(١) وتنسب إلى نجع العمرة قرب البليانا . ويرى « بيتري » أنها ليبية الأصل . بينما يراها « شارف » أفريقية من الجنس الحامى .

(٢) جرزة قرية من قرى مركز العياط . ويرى « بيتري » أن أصحابها قدموا من الشرق ويعارضه « شارف » الذى يؤكد نسبتها إلى الدلتا .

(شكل ٦) تمثال من الصلصال من « عصر العمرى » لامرأة برأس صغيرة وذراعين مرفوعتين إلى أعلى « متحف بروكلين بالولايات المتحدة »

(شكل ٧) تمثال لرجل من البازلت من عهد أواخر ما قبل

(شكل ٨) مقبض سكين من العاج عثر عليه فى الوجه القبلى وبه نقوش من الجهتين « ا » يسجل معركة ونوعين مختلفين من القوارب . « ب » حيوانات ورجل ملثم يقف بين أسدين . « متحف اللوفر بفرنسا »

الأشكال . وتصور الجهة الأخرى (شكل ٨ ب) أنواعًا مختلفة من الحيوانات ورجلا واقفًا بين أسدين . وقد أثبت الفنان فى هذه النقوش مهارة ودراية بتكوين الجسم البشرى . كما دلت رسوم الحيوانات على مقدرة وبراعة فى تسجيل الخصائص المختلفة للحيوانات .

ويلاحظ فى رسم هذه النقوش التطور الذى طرأ على الفنان فى تصميمه العام للصورة فيلاحظ أنه ابتدأ فى تنظيم وحداته على السطحين . فترى الأشخاص فى السطح الأول ليسوا مبعثرين فى المساحة ، ولكنهم موزعون فى سطور أفقية ، ويكونون وحدة كاملة . كما أن توزيع الحيوانات على السطح الآخر به نوع من الترتيب . فتراهم موضوعين فى خطوط عمودية ، وكل زوجين منهم رسما على خط أفقى واحد .

ومن أواخر ذلك العهد عثر على لوحات أردوازية منقوشة بنقوش بارزة . وكانت هذه اللوحات (أو الصلاّبات[1]) تستعمل فى أول الأمر لصحن الدهنج[2] وكانت بغير نقوش ، ثم تطورت وشغل النقش سطحها ، ومثال ذلك « لوحة الصيادين » (شكل ٩) التى توضح مناظر صيد الأسود . فنلاحظ تعاون عدة أشخاص

(شكل ٩) صلابة «صيد الأسود» ويظهر بها صفان من الرجال يتعاونون على صيد الأسود ، قارن الأسد المنقوش بالجهة اليمنى بشكل ٢٣ . «المتحف البريطانى»

(١) الصلابة هى لوحة كانت شائعة الاستعمال فى عصور قبل التاريخ لصحن مواد الزينة .

(٢) حجر يسحق ليصنع منه الكحل . وقد استعمل منذ عصور تاسا والبدارى .

١٠ ب

١٠ ا

(شكل ١٠ ا، ب) صلاية منقوشة من الوجهين بصور لحيوانات مختلفة وتظهر بينها كلاب الصيد كما يظهر بها بعض الحيوانات الخرافية « متحف أشموليان إنجلترا » . « ارتفاع اللوحة ٤٣ سم »

للإيقاع بالأسد . كما تسجل اللوحة التى عثر عليها فى « هيراكنبوليس »[1] حالياً « الكوم الأحمر » نقوشاً على السطحين لمجموعة من الحيوانات المختلفة التى تعيش فى المنطقة (شكل ١٠ ا و ب) وتظهر بينها نقوش لحيوانات خرافية بجسم آدمى ورقاب طويلة . وتدل رسوم هذه الحيوانات على دقة متناهية فى محاكاة الطبيعة وعلى مقدرة الفنان المصرى فى تسجيل أشكالها المختلفة .

(١) أطلق الإغريق هذا الاسم على مدينة « نخن » عاصمة مملكة الجنوب عند ما شاهدوا صورة الصقر « حورس » مرسوماً على جدار المدينة فاعتقدوا أنه الطائر المعروف باسم مالك الحزين وهذا هو اسمه باللغة الإغريقية .

ثانياً – عهد ما قبل الأسرات :

كانت مصر فى عهودها الأولى تتألف من جماعات مختلفة . وبمرور الزمن تكونت لهذه الجماعات زعامات ، تطورت إلى اتحاد فى الشمال . حيث تكونت مملكة الدلتا « الوجه البحرى » وإلى أخرى فى الجنوب . حيث كانت مملكة الجنوب « الوجه القبلى » . ثم تم للكتلة الشمالية الاستيلاء على مملكة الصعيد . ونتج عن هذا الانتصار الاتحاد الأول للإقليمين . وكانت عاصمة تلك المملكة الموحدة « أيون » أو « هليوبوليس »[١] الواقعة فى منتصف المملكتين . ويرجح العلماء أن ذلك تم حوالى عام « ٤٢٤٥ ق . م » .

انفصلت المملكتان بعد فترة من الزمن . وعاد النزاع بينهما أشد مما كان أولا . وكانت عاصمة الشمال « بى »[٢] وعاصمة مملكة الجنوب « نخن » أو « نخب »[٣] . وقد اتخذت مملكة الشمال نبات البردى رمزاً لها والأفعى حامية للنبات . واتخذت مملكة الجنوب نبات « الأسل »[٤] رمزاً لها والرخمة حامية له . وميز ملك الشمال بتاج أحمر ذى شكل خاص . كما اتخذ ملك الجنوب تاجاً أبيض ذا شكل مخروطى .

ولقد كانت للديانة فى مصر أهمية كبرى أثرت فى حياة المصريين . كما رمزوا للمظاهر الطبيعية فى عقائدهم الدينية . وكان لكل مدينة إله يتقربون إليه بالقرابين . ولقد قدس المصريون بعض الحيوانات والطيور التى تعيش فيها وكانت أغلب المعبودات المحلية من الحيوان أو النبات التى اتخذوها مظهراً من مظاهر القوة الإلهية . أو مقراً تحل به الآلهة . وكان الصقر « حورس » المعبود الرئيسى فى كل من المملكتين .

---

(١) هذه التسمية إغريقية ومعناها مدينة الشمس .

(٢) تسمى أيضاً « بوتو » وأصلها أغريقى « ومكانها الآن « تل الفراعين » بمركز دسوق .

(٣) مكانها الآن مدينة الكوم الأحمر وتقع بين مدينتى إدفو ، إسنا .

(٤) نبات من فصيلة السوس دقيق الأغصان .

لم تعرف أسماء الملوك التى سبقت عصر التوحيد وتكوين الأسر فى مصر إلا برموز لهم . مثال ذلك الملك العقرب أحد ملوك الجنوب الأقوياء . ولقد حاول هذا الملك أن يوحد البلاد . ولكن محاولته لم تنته بنصر كامل ، حيث لا يظهر فى آثاره مرتديًا التاج المزدوج . ولقد تم ذلك التوحيد على يد ملك آخر من ملوك الجنوب يعرف باسم الملك « نعرمر » .

ومن مدينة « هيراكنبوليس » عاصمة الجنوب . عثر على آثار فنية تشير إلى التطور الفنى الذى كان أساسًا للفن المصرى القديم . ويشهد على ذلك الصلاّيات التى سبق ذكرها ، والتى نقش عليها مختلف الأنواع من الوحوش فى غاية من الدقة .

ومن بين ما عثر عليه الأثرى « كويبل Quibell » فى هذه المنطقة رأس دبوس (مقمعة)[1] للملك العقرب (شكل ١١) سجلت عليه نقوش تسجل افتتاح شق قناة لزيادة الرقعة المنزرعة (شكل ١١ ا) ويلاحظ أن الفنان قد اتبع فى تسجيل نقوشه المحاور الأفقية .

ولهذه الفترة أهميتها فى تاريخ الفن المصرى ، حيث حصلنا منها على أقدم محاولة لتصوير جدارى ملون فى تاريخ الحضارة المصرية ، مما يدل على أن الفن فى تلك الفترة قام بقفزات سريعة تقدمية . فمن مدينة « هيراكنبوليس » عثر على صورة جدارية ملونة فى مقبرة من مقابر المدينة يرجع تاريخها إلى الجزء الأخير من الألف الرابعة قبل الميلاد (شكل ١٢) . وللأسف تطرق التلف لبعض أجزائها ، ونقل ما تبقى من الجدار إلى المتحف المصرى بالقاهرة .

وهذا الجدار مشيد من اللبن مغطى بطبقة بيضاء مرسوم فوقها مجموعة مبعثرة من الأشكال على السطح بأكمله . وهذه الوحدات المبعثرة ليس هناك ارتباط بينها ، وتمثل الوحدات أشكالاً آدمية وحيوانية . فنرى رجالاً يتقاتلون . كما نشاهد رجلا واقفًا بين أسدين . ومن الواضح أن بعض وحدات

---

(١) سوط له مقبض كروى الشكل يستعمل فى القتال .

١١ أ

١١

(شكل ١١) قبضة سوط الملك العقرب وبه نقش يصور الاحتفال بشق قناة « انظر الرسم التفصيلى » (١١ أ) « متحف أشموليان »

(شكل ١٢) جزء من تصوير جدارى ملون عثر عليه فى مقبرة بمدينة هيراكنپوليس « حالياً الكوم الأحمر » « المتحف المصرى القديم بالقاهرة »

هذه الصورة الجدارية يتردد فى سكين جبل العرق . وتعبر المساحات البيضاء عن قوارب تستعمل فى نقل الموتى . ويؤكد ذلك صورة النساء الباكيات اللواتى يرفعن أذرعهن إلى أعلى .

ويرجع تاريخ هذه الصورة الجدارية إلى سنة ٣٢٠٠ ق . م حين كانت مصر محكومة بمجموعة من الحكام فى الشمال والجنوب . ومن الجائز أن النقوش التى تمثل رجالاً باللون الأبيض يقاتلون رجالا باللون الأسود . تشير إلى المعارك التى كانت تدور بين المملكتين الشمالية والجنوبية قبل أن توحد الدولة على يد الملك « نعرمر أو منى » « Narmer or Mena » أحد ملوك الجنوب الذى أخضع الشمال لسلطانه ، وأسس الأسرة الأولى فى حكم مصر الموحد فى العصور التاريخية .

لم يعثر على أثر مسجل باسم الملك « منى » الذى جاء ذكره فى بردية « تورين Turin » كمؤسس للأسرة الأولى . كما ورد اسمه فى قائمة الملوك «بأبيدوس» كأول ملك من ملوك مصر الموحدة [١] . ولكن عثر على مستند تاريخى يخلد ذكرى التوحيد وذلك هو صلاّية « نعرمر »الأردوازية [٢]« (شكل١١٣ وب) مما حمل العلماء على الاتفاق على أن « نعرمر » هو اسم آخر للملك« منى » .

وطابع لوحة « نعرمر » من طراز ما قبل الأسرات ، ويتضح من دراستنا لها مميزات الفن المصرى فى هذه الفترة الذى سيستمر فى الظهور فى العهود المصرية التالية . كما أنها تعتبر أقدم سجل تاريخى فى لأقدم شخصية تاريخية عرف اسم صاحبها . حيث تسجل هذه اللوحة على وجهيها نقوشاً تصور الكفاح الذى قام به الملك والنصر الذى تم له .

قسم الفنان سطح اللوحة إلى تقسيمات أفقية سجل عليها الأحداث بطريقة

---

(١) ذكر الرحالة الإغريقى الذى زار مصر أن الكهنة المصريين أخبروه أن « منى » كان أول من حكم مصر .

(٢) رغم وجود حفرة بها إلا أن صلاية « نعرمر » من المؤكد أنها عثرت لغرض تذكارى .

مبسطة تبدو ككتابة يسهل قراءتها . فأحد الوجهين « ا » يعلوه رأسان للآلهة « حتحور » على شكل رأس بقرة . نقش بينهما اسم الملك بالهيروغليفية . وفى السطر الأوسط رسم الملك يحمل أكبر من الأشخاص المرافقين له مرتديًا تاج الوجه القبلى الأبيض . ويمسك بيساره برأس أسير راكع . بينما يمناه تحمل المقمعة التى يوشك أن يهوى بها على رأس عدوه . ويقف فى مواجهة الملك الصقر « حور » أو « حورس Horus » على مجموعة من نبات البردى ، ممسكًا بحبل يمر من أنف رأس آدمى يخرج من نفس الأرض التى ينمو فيها النبات . وهذه المجموعة الأخيرة ما هى إلا تكرار لمنظر النصر الملكى . فالصقر « حورس » رمز إله الوجه القبلى ، ونبات البردى يرمز للوجه البحرى . ولاعتقاد المصريين بأن الملوك من نسل الآلهة . لذلك تعتبر هذه الوحدة ترديداً لانتصار الآلهة على الآدميين . ورسم الملك بهذه الصورة يضرب عدوه الآدمى لا يعنى معركة حقيقية وإنما هى صورة رمزية للنصر . لأن الإله لا يصارع الآدميين . وخلف الملك يظهر تابع يحمل صندل الملك وإناء . كما يظهر فى السطر الأسفل رجلان عاريان يحاولان الهرب ومن خلفهما شكل حصن .

وبأعلى الوجه الآخر (ب) رأسا حتحور ونقش بينهما اسم الملك ، وبالسطر التالى نرى الملك مرتديًا تاج الوجه البحرى الأحمر . يتبعه حامل صندله فى موكب النصر مع وزيره وحملة الألوية وهو يعاين جثث الأعداء المفصولة رؤوسهم . وبأسفل ذلك الموكب يوجد رجلان يمسكان بحيوانين خرافيين . لهما رقبتان طويلتان متعانقتان تقع بينهما فجوة دائرية . ولا يوجد معنى لهذه الوحدة . ويظهر أن الفنان استعملها بقصد الزخرفة . ويتكرر رمز النصر مرة أخرى فى أسفل اللوحة ، فنرى ثوراً يمثل الملك يطرح شخصًا أرضًا ، ويقتحم بقرنيه أحد أسوار قلعة . ويتكرر ارتباط الملك بالثور فى الذيل الذى يتدلى من حزامه . كما أن الملك كان يلقب فى العصور التاريخية بلقب « الثور القوى » . ومما يؤكد تأثر هذه اللوحة بطراز ما قبل الأسرات . هذه الوحدة الأخيرة التى شوهدت من قبل فى آثار نهاية عهد « جرزه » منقوشة على لوحة الصيادين (شكل ٩).

١١٣ ا

(شكل ١١٣، ب) صلاية الملك « نعرمر » نقشت على الوجهين بنقوش مصورة وتجمع هذه النقوش بين أسلوب الفن فيما قبل الأسرات – كصورة الحيوانين الخرافيين (شكل ١٠) وصورة حزام الملك الذي

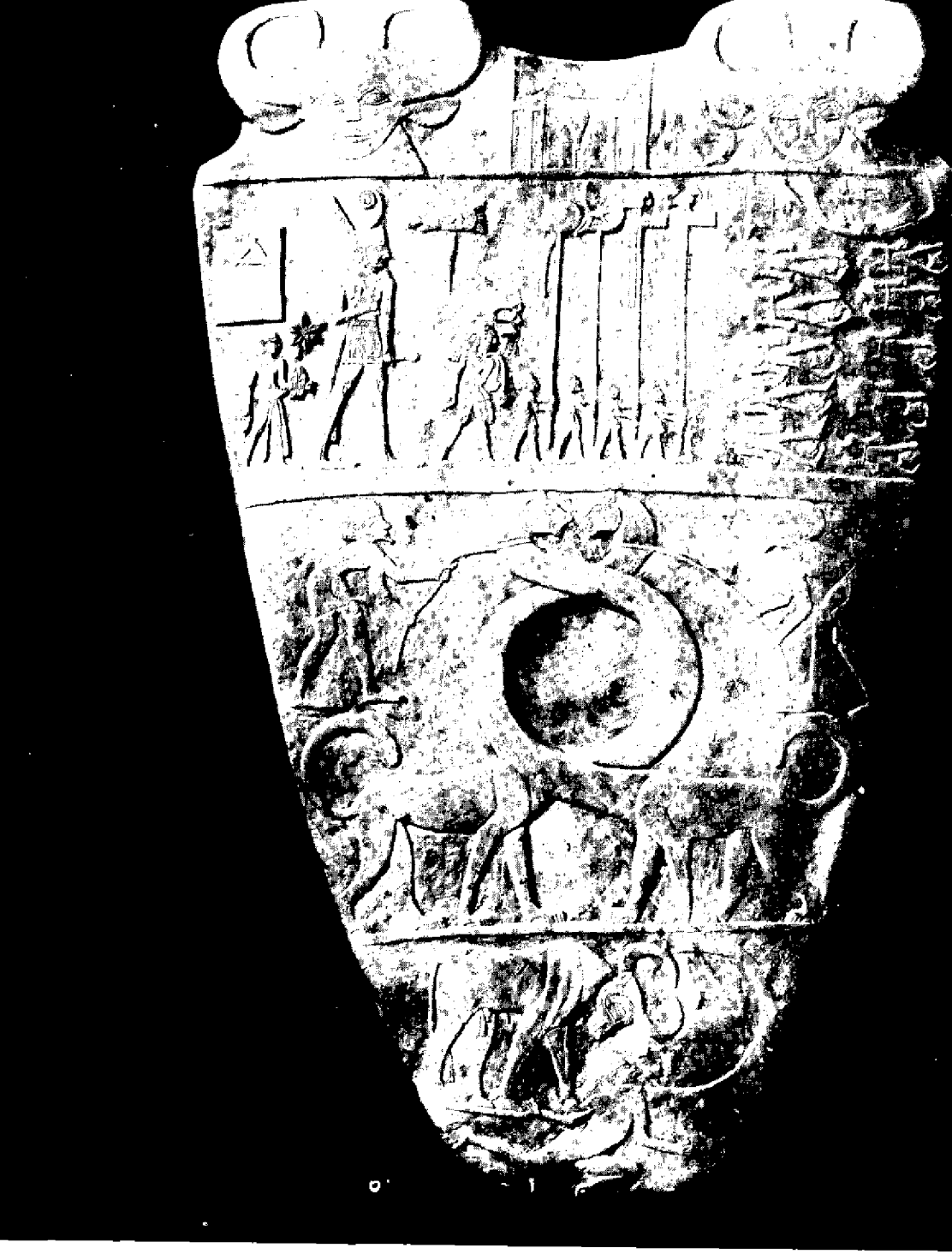

منه ذيل الثور (شكل ٩) – ويبين أسلوب الفن المصرى القديم
د الأسرات وذلك فى رسم الملك من وجهات نظر مختلفة فى حجم
من الأفراد المحيطين به . «المتحف المصرى بالقاهرة»

وللأسف لا توجد آثار توضح الفترة الانتقالية التى مر بها الفنان منذ نهاية عهد « جرزة » إلى أن توصل إلى مثل هذا العمل الفنى الرائع الذى يلاحظ فيه تقدم واضح ، حيث توصل الفنان إلى اكتشاف خط الأرضية واستعملها فى توزيع الأشكال ، ما عدا حث الأعداء التى رسمها وكأنها منظورة من أعلى . ويلاحظ فى رسمه للأشخاص أنه يصور الأكتاف والأعين من الناحية الأمامية بينما تظهر بعض أجزاء الجسم فى وضع جانبى ، مثل الرأس والجزء الأسفل من الجسد . ويستمر هذا الأسلوب فى الفن المصرى بدون تغيير تقريباً خلال عهد الأسرات . كما يستمر رسم الملك فى حجم أكبر من حجم الأشخاص الموجودين معه فى نقوش وتصاوير مقابر أسر الدولة القديمة . وترجع أهمية هذا التراث الرائع إلى أنه كان بداية لظهور مميزات طابع الفن المصرى الذى يستمر من أوائل عهد الأسرات حتى أواخر العهود المصرية تقريباً . كما أنها تعتبر المسند لتاريخى الوحيد الذى يشير إلى أن الوحدة تمت بعد نضال فى عهد الملك « نعرمر » حيث نراه يضع تاج الشمال فوق رأسه فى أحد الوجهين ، ويضع تاج الجنوب فى الوجه الآخر .